جامعة تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الآثار السنة الجامعة : 2020 – 2021

المستوى : ماستر2 السداسي : الثاني التخصص: الآثار الإسلامية

عنوان المقياس: مصادر الجزائر في العصر الحديث

أستاذ المادة : أ.د بلحاج معروف

Email:archeomarouf@gmail.com

عنوان الدرس كتاب طبوغرافية الجزائر للكاتب دييغو دي هايدو

La topographie d'Alger par Diego De Haedo

كتاب طبوغرافية الجزائر للكاتب دييغو دي هايدو
La topographie d’Alger Diego De Haedo

نبذة عن حياة المؤلف:

إن المعلومات عن هايدو جد نادرة رغم أهمية الأعمال التي تركها، وإن غياب ترجمته ليس بغريب فكتبه رغم أهميتها في تحديد تاريخ الجزائر الحديث، بقيت مجهولة حتى بدأ المؤرخون الغربيون يهتمون بها بعد احتلال فنسا للجزائ.ر

هو فراي دييغوو دي هايدوFray Diego De Haedo، هكذا ورد اسمه عند دي غرامون وعند الأب دان، في حين أن موليييني في ترجمته لكتاب "خلال الأسر في الجزائر" لنفس المؤلف قال إن اسمه هو دونيس دي هايدو، ويظهر أن موليييني ربما أخطأ، حيث أن جل الكتابات تتوافق مع ما ذهب اليه دي غرامون والأب دان الذي يشير إلى أنه من أصول إسبانية، ويجهل تاريخ ميلاده أو وفاته، لكن يذكر دان أنه أسر بالجزائر سنة 1578م، لكنه لم يذكر كم بقي في الأسر، في حين يشير دي غرامون أنه تم حريره سنة 1581م.

كما يشير كل من مونرو وبربروجر أن هايدو كتب كتابه في أواخر القرن 16، وطبع سنة 1612م، وحمل عمله اسم طوبوغرافية وتاريخ العام للجزائر، وهو ينقسم الى خمسة أجزاء

محتوى الكتاب:

في القسم الأول من الكتاب تناول هايدو تأسيس مدينة الجزائر، وذكر قدمها التاريخي، فيذكر أن المدينة كانت تعرف باسم الجزائر، وهي مشهورة مع الأسف من بما تكبده من خسائر للدول المسيحية من خسائر، ثم يشير إلى موقعها في إفريقيا في المقاطعة التي كانت تعرف قديما باسم موريطانيا القيصرية على سواحل البحر الأبيض التوسط.

يشير هايدو إلى جهله لتاريخ تأسيس مدينة الجزائر ومؤسسها، ومن أجل ذلك اعتمد على حسن الوزان في هذه المسألة، حيث رجع فضل تأسيسها إلى قبيلة بني مزغنة، ولكنه لا يعطي تاريخا محددا، ويذكر هايدو في هذه النقطة أن مدينة الجزائر لم يرد لها ذكرا عند المؤرخين القدامى مثل سترابون وبلينو وبوليب، على الرغم من أن هذه المصادر تتحدث عن كل المقاطعات الإفريقية.

لكن هايدو يشير بعد ذلك إلى أن سترابون قدم معلومات عن مدينة التي سماها لول القيصرية، وفي رأيه كان يقصد بها الجزائر، بما أنه يقول إن أمامها مجموعة من الجزر الصغيرة.

ويستنتج هايدو بعد ذلك أن الجزائر مدينة عريقة في القدم حتى قبل فترة القيصر أوغيست، وربما كانت خرابا في زمن ما، حيث أن سترابون يذكر أن يوبا كان يفكر في إعادة بنائها، وهنا يعطي المؤلف بعض التفاصيل عن حياة يوبا الثاني الذي تزوج مع سلين ابنة كليوباترة المصرية، ويذكر أيضا ابنه الكاتب بتوليمي.

يبدو في نظر هايدو أن لول القيصرية قد تم اختيارها كعاصمة لموريطانيا القيصرية نظرا لنقاء هوائها، وجوها المنعش، وانطلاقا من الأهمية التي اكتسبتها لدى الرومان فقد كان سكان الجزائر يعيشون في ظروف جد حسنة، ولا سيما في عهد أدريان حوالي 135م.

ويعتقد المؤلف أن خليج ماتيفو الذي يبعد عن الجزائر بحوالي 12 ميلا كان يتضمن مدينة رومانية قديمة، وتم هدمها من قبل القوطيين.

ويستدل علة قدم تاريخ المدينة وجود المآذن والمساجد، وبها كل المرافق العامة، كما كان موقع المدينة الساحلي وميناؤها الطبيعي مميزا مما جعل خير الدين يعتني اليوم بها، إلى جانب خصوبة أراضيها التي شجعت سكانها للاستقرار فيها.

تساءل المؤلف في قسم ثاني عن الدوافع التي جعلت المدينة تأخذ اسم الجزائر، وهنا يذكر أن العرب المسلمين لم يتركوا أي شيء في شمال إفريقيا أو في إسبانيا إلا وغيروا اسمه، ونفس الشيء بالنسبة للأول القيصرية التي أطلقوا عليها اسم الجزائر التي تعني كما يشير الجزائر، وسميت لذلك لوجود مجموعة من الجزر الصغيرة أمامها.

وفي قسم آخر تحت عنوان الحكام المحليون الذين تداولوا على حكم الجزائر، فيقول إنه بعدما تفرقت إفريقية وإسبانيا إلى عدة إمارات كانت الجزائر تابعة إلى تلمسان ومع مضي الزمن أصبحت نوعا ما مستقلة إلى أن استولى بدرو نفارو سنة 1509م، وخوفا من الإسبان عين سكان الجزائر سليم التومي حاكما عليهم ليتولى أمر حماية مدينتهم، ووافق واستمر في الحكم حتى قدوم الأتراك.

يتناول الكاتب دخول الجزائر تحت النفوذ التركي فيشير إلى أن سكان الجزائر الموريسكيون كانوا يمارسون القرصنة ضد المسيحيين، ولا سيما بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، فعزم بيدرو نافارو الإسباني توجيه حملة عسكرية لتصفية القراصنة وتهديم مدينتي الجزائر وبجاية،

وسرعان ما عقد سكان الجزائر معاهدة صلح مع الملك الإسباني لمدة عشر سنوات، وعلى إثرها بنا حصن البنون أمام الجزائر، وفي نظره فقد حد هذا الحصن من نشاط القراصنة.

وهنا يذكر هايدو طلب سكان الجزائر المساعدة من الأخوة بربروس الذين كانوا موجودين في جيجل من أجل انقاذهم من المسيحيين مقابل مكافآت، وفي هذا الصدد يذكر أن بربروس كان يترصد هذه الفرصة للاستيلاء على الجزائر، وهكذا استجاب بسرعة لطلبهم، وبدأ بضرب حصن البنون بالمدافع، ولكن بدون جدوى، ويعتقد هايدو أن عروج قام باغتيال سليم التومي للاستيلاء على حكم المدينة، فتسنى له ذلك، ويقول أن سكان الجزائر لم يكن لهم بد سوى الخضوع له، وقد جرت هذه الأحداث حسب هايدو في أوت 1516م، ومنذ ذلك التاريخ لم يتوان الأتراك في توسيع ملكهم نحو المدن الأخرى.

انتقل هايدو في قسم آخر إلى سور مدينة الجزائر، حيث يقول عنه أنه ذو شكل يشبه القوس، وتمتد المساكن على منوال السور، ولكنها خالية من الفتحات، وتتسلق الأسوار التي تمثل القوس الهضبة إلى قمتها، ويمتد في الأسفل سور أقل ارتفاعا مجاورا البحر، وهنا يقدم تفاصيل على طريقة امتداده، والعمل الذي قام به خير الدين بربروس ليصل اليابسة بالجزر وينشئ الميناء، ويشير أيضا إلى ارتفاعات وسمك السور، وفي سنة 1532م أضاف خير الدين جدارا آخر ليضم حتى الجزر لتشكيل ميناء كبير، ويقدم حول هذا الجدار معلومات عن السمك والطول والارتفاع، وقد أكمل عمله كما يشير الباشا أحمد سنة 1573م، من أجل تأمين البواخر والبوارج الحربية.

يتطرق الكاتب في فصل آخر إلى أبواب الجزائر فيذكر أن مدين الجزائر كان بها سبعة أبواب ويشير إلى مواقعها بالضبط وأسمائها مثل باب الواد وباب القصبة وغيرها مثل باب الجديد وباب عزون الذي يعد الأكثر كتظاظا، نظرا لانفتاحه نحو القرى والمدن الجزائرية الأخرى.

ويتحدث المؤلف بعد ذلك عن الأبراج والأماكن الخاصة بالفرسان فيذكر أن الأبراج كثيرة العدد فيقوم بعدها ويقدم بعض المعلومات عنها وعن الحصون مثل الحصن الذي شيده رمضان باشا سنة 1576م.

ثم تكلم بعد ذلك عن القصبة الموجودة في قمة الهضبة، فيعطي أبعادها، حيث يقول إن طولها 100 قدما، وعرضها 60 قدما، ثم يصف سورها الذي يتضمن برجين، وفي داخلها يسكن الإنكشاريين.

ويستمر الكاتب في تتبع آثار سور المدينة، حيث يتحدث عن باب الجديد، ثم ينتقل إلى وصف الحصن الموجود بالقرب من باب الجزيرة الذي يعده الأحسن في مدينة الجزائر وقد بناه القايد صفا (لعله يقصد صفر) الذي حكم خلال 1551-1552م عند غياب حسن باشا بن خير الدين.

يشير هايدو إلى أن هناك برجان في الجزيرة المتصلة بالميناء، ثم يتناول أيضا عنصرا مهما من التحصينات الدفاعية وهو الخندق الذي يحيط بالمدينة ويبلغ عرضه 16 قدما.

تطرق الكاتب بعد ذلك إلى الحصون الثلاثة خارج السور، والتي يطلق عليها السكان اسم البرج، وقد تم بناؤها في العهد التركي، ومنها برج العلج علي، وعلى بعد بحوالي ألف قدم منه نحو الجنوب الغربي ، تم إنشاء برج ثاني من قبل محمد باشا سنة 1568م، وأطلق عليه اسمه، وأما البرج الثالث فهو برج الامبراطور الذب بدأ بناءه حسن باشا بن خير الدين حيث أقام شارلكان خيمته أثناء هجومه على الجزائر سنة 1545م، واكتمل بناء هذا البرج سنة 1580، أثناء حكم حسن باشا ، فقدم لنا وصفا وافيا لهذه الأبراج.

يحدثنا هايدو في قسم آخر عن مساكن وأزقة الجزائر، حيث يذكر أن بها 12200 مسكن ذات الحجمين الكبير والصغير، وهي ذا ت صحن، وتمتاز شوارع المدينة ودروبها بالضيق أكثر من شوارع غرناطة ولشبونة، ويستثني منها شارع السوق الذي يمتد من باب عزون إلى غاية باب الواد، ثم يصف الشوارع وينتقل إلى المساكن التي يصفها من الخارج ومن الداخل، ثم يتناول المساكن الواقعة خارج الأسوار وعددها 25 مسكنا يسكنه الفقراء.

لقد خص هايدو فصلا لسكان الجزائر والفئات التي تشكل المجتمع الجزائري، وهم المحليون والأتراك واليهود ، فالمحليون ينقسمون إلى أربعة أقسام؛ وهم: البليديون المواودون في المدينة ويقطنون في 2500 مسكن، ويستعرض عاداتهم في اللباس وتقاليدهم ، والفئة الثانية هم القبائل الذين قدموا من جبال القبائل وهم كلهم دو بشرة سمراء ، ويذكر أيضا عاداتهم وتقاليدهم ، وأما الفئة الثالثة فهم العرب الذين يأتون من دواويرهم نحو الجزائر ، ومعظمهم يمتهنون التسول، والفئة الرابعة وهم الأندلسيون القادمون من غرناطة وأراغون وفالونسيا وكاتالونيا.

يتعرض الكاتب في فصل آخر إلى فئة مهمة في المجتمع الجزائري، ألا وهم الأتراك الذين منهم القادمون من تركيا، ومنهم الذين أخذوا التسمية عن طريق المهنة، وهم الطائفة التي

اعتنقت الإسلام من المسيحيين، وهناك طبقة أخرى يتحدث عنها هايدو وهم القياد الذين يحكمون المدن مثل تلمسان ومستغانم وتنس وشرشال وملیانة...الخ، وهؤلاء يشكلون طبقة الأغنياء ، وهنا قدم بعض أسماء أولائك القياد.

يتناول المؤلف بعد ذلك فئة اجتماعي أخرى، وهي الجنود ومهمتهم الدفاع عن الجزائر، ومعظمهم كبار السن ومن المسيحيين المعتنقين للإسلام.

يتكلم هايدو بعد ذلك عن فئة الجيش الإنكشاري ويشكلون مؤسسة منتظمة مهمتها المشارة في الحروب، ومن بينهم أغاوات الإنكشارية وهذه الرتبة يصلها الإنكشاري بالأقدمية.

وفي فصل آخر يوضح هايدو الرتب المختلفة في الجيش الإنكشاري مثل الجند والكاهيا...الخ، وفي موضع آخر يتحدث عن لياس الإنكشاريين، فيقوم بوصف دقيق، ثم ينتقل إلى ذكر عاداتهم وتقاليدهم في فترات السلم والأمن، ثم يستعرض عادات وتقاليد قراصنة الجزائر، ويقدم عددهم وعدد البواخر الحربية التي يمتلكها الأسطول الجزائري سنة 1581م، وهنا يقدم إحصائيان عن بواخر كل واحد من رياس البحر.

وأما فئة التجار فيشكلون في نظر هايدو الفئة الخامسة في المجتمع الجزائري، فيقول أن معظمهم كانوا إنكشاريين أو مسيحيين، وهؤلاء التجار يقومون بشراء البضائع من البواخر القادمة من مناطق مختلفة ويبيعونها.

ويفرد هايدو فصلا لحرفيي الجزائر ويعدها الفئة السادسة في المجتمع، ومنها الخياطون والخرازون والبناؤون وغيرهم، وأغلب هذه المهن يمارسها الأسرى تحت إمرة سيدهم.

ثم يتناول الكاتب بعد ذلك لباس المسلمين في الجزائر، ويتحدث عن عادات كل فئة في اللباس.

يتطرق المؤلف في مكان آخر لفئة أخرى من المجتمع وهم المرابطين ومنهم القاضي الذي يتكفل بالمسجد، ويعتمد في الآذان على الأهالي، وهؤلاء القضاة يسترزقون في المساجد، وبعض المرابطين يملكون مدارس يعلمون فيها التلاميذ الكتابة والقراءة، ثم يتناول بشيء من التفصيل عادات هؤلاء المرابطين.

أفرد هايدو فصلا أو قسما كاملا عن اليهود في مدينة الجزائر ويعدها الطبقة الثالثة في المجتمع العاصمي ، فيشير إلى أنهم ثلاث مجموعات ، يهود إسبانيا ويهود جزر الباليلر ويهود إفريقيا، وجميعهم يشتغلون في التجارة ، وبينهم من يمتهن التدريس ويقومون بتعليم الأطفال العبرية

والعربية، و يقطنون في 150 مسكنا موزعين في حيين، حيث يوجد البيع اليهودية، ويدفعون للباشا إتارة(الجزية)، ثم يتناول يتحدث عن تصرفات السكان المحليين اتجاههم.

وفي فصل جديد يتحدث الكاتب عن اللغة والعملة المستعملة في الجزائر، فيذكر ثلاث لغات متداولة ، وهي العثمانية والعربية والبربرية لغة الأفارقة التي تتعدد فيها اللهجات، إضافة إلى لغة الفرنجة.

وبالنسبة للعملة فهي أيضا متعددة كعملة إيطاليا وعملة إسبانيا والمغرب، بالإضافة إلى العملة التركية ، وتعد العملة الإسبانية الأكثر تداولا في ذلك الزمان مقارنة بالعملات الأجنبية الأخرى، وأما العملة الجزائرية فهناك الذهبية والفضية والنحاسية، فيذكر عملات البوربة وأسبرة والروبية وزيانة، والأخيرتان من الذهب وتسكان في تلمسان.

يتناول المؤلف في جزء آخر العادات والتقاليد وحفلات الأعراس، ويتطرق هنا إلى تقاليد الخطوبة، وعادات الاستعداد للزواج، ثم يتعرض إلى عادات الولادة وتربية الأولاد، فيقول أن المرأة عندما تنتظر مولودا تقوم بزيارة الأولياء، وتشعل لم البخور مع تأدية بعض الطقوس.

وعن تربية الأطفال فيذكر لنا بعض العادات التي تقوم بها الأم اتجاه أولادها، ويذكر حتى عادات اليهود في هذا المجال.

ثم ينقلنا المؤلف إلى لباس المسلمين بمدية الجزائر، وهنا يصف لباس المرأة العربية والقبائلية وتسريحات الشعر، ويستعرض أيضا عادات المرأة اليهودية.

يتكلم هايدو عن أشغال سيدات الجزائر وعن أثاث منازلهن، وهنا يسرد لنا بعض الأشغال العادية مثل التكفل بالأطفال والطبخ والغسيل... وغيرها من الأعمال التي تقوم بها المرأة في البيوتوقليل منهن يضعن الحرير، وبعضهن يقضين أوقاتهن في زيارة الأولياء، ثم يصف الأثاث الموجود في البيت.

ولا ينسى الكاتب الحديث عن رزنامة الجزائريين خلال العام مثل الأعياد ورمضان، ويشير إلى أن السنة تبدأ عندهم بالمولد الشريف، ويستعملون الشهور القمرية.

ويذكر في كتاباته أن سكان شمال إفريقيا وتركيا وغيرها من البلدان الإسلامية ليست لديهم دراية بعلوم الفلسفة والمنطق والميتافيزيقا والهندسة والفلك، وجميع العلوم العقلية الأخرى وليست لهم مداس في هذه المجالات.

ومن الموضوعات المهمة التي تعرض لها هايدو نجد الأسبلة التي يقوم البايليك بصيانتها، وهناك مسؤول خاص بها يدعى خوجة، ويتحدث أيضا عن المخزن العمومي الذي يتولاه وكيل أوقاف المسجد، ففي هذا المكان يمكن لأي شخص أن يودع أمواله (بمثابة البنك)

المراجع:

Don Diego De Haedo, Topographie et histoire générale d'Alger, trd : Dr. Monnereau et A. Berbrugger, Imprimé à Valadolid 1612, 1870.

? /https://www.fichier-pdf.fr/2015/06/26/1870-topographie-histoire-alger-de-haedo

عبد العزيز الأعلى، طبوغرافيا وتاريخ الجزائر العام،

https://abdelazizlaala.wordpress.com/2016/08/31/